وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، وهمَّ الملك شهريار أن يتكلم، وهمَّ أن يأتي من الحركات ما كان خليقًا أن ينبه النائمة، ولكنه ذكر شيئًا في اللحظة الأخيرة، فانسلَّ من الغرفة في هدوء كما انسلَّ إليها.

ولم يكد ينتهي إلى غرفته حتى دعا إليه قواد الحرس الذين يقومون دون غرفته ودون غرفة شهرزاد، فلما مثلوا بين يديه قال لهم في صوت مهيب رهيب: «إن بقاء رءوسكم في أماكنها رهين بأن يجهل الناس جميعًا، والملكة في أولهم، ما كان منذ الليلة، فلا أعلمنَّ أن أحدًا قد عرف خروجي من هذه الغرفة والرجوع إليها، وإني أقسم لا ينتهي إليَّ ما يدل على ذلك أو يشير إليه إلا ضربت أعناقكم جميعًا، وقد تعلمون أني لا أوعد إلا تحقق الوعيد.» قالوا جميعًا: «فإنا لا نعلم أن مولانا قد خرج من غرفته أو عاد إليها، وما نكاد نفهم من حديث مولانا شيئًا، ولولا أن علينا أن نأتمر وليس لنا أن نسأل لاستوضحنا مولانا بعض ما يقول!» قال الملك: «أرى أنكم قد فهمتم عني ما أريد، فانصرفوا راشدين.»

ثم أوى إلى سريره فاستمتع بنوم لذيذ طويل، لا تروعه فيه الأحلام، ولا تزعجه عنه أحاديث تلك الأرواح الهائمة التي تنطلق في الفضاء، وهي تجمجم ببعض الألفاظ، فيفهم عنها الناس أحيانًا ولا يفهمون عنها في أكثر الأحيان، وكان الملك خليقًا أن يمضي في نومه هذا الهادئ اللذيذ، لولا أن أحس على جبهته شيئًا يشبه ما تعود أن يجد حين يستقبل نسيم الصباح حين تدبر النجوم ويبتسم الليل عن كوكب النهار، فلما أحس هذا الروح أفاق من نومه هادئًا موفورًا، وفتح عينيه فرأى شهرزاد قائمة إزاءه وقد وضعت يدها الرَّخْصَةَ على جبهته وهي تمد إليه نظرة غامضة أحبها ولم يفهم منها شيئًا.

قالت شهرزاد: «أفق أيها الملك السعيد غير مأمور! فقد ارتفع النهار، وأوشكت الشمس أن تزول، وإن وزراءك لينتظرون مقدمك الميمون عليهم. ألم تتأذَّن فيهم أمس بأنك ستستقبلهم متى أشرقت الأرض بنور ربها!»

قال الملك: «هو ذاك يا أحب الناس إليَّ وآثرَهم عندي، ولكني أرقت منذ الليلة أرقًا طويلًا، ولم أطعم النوم إلا حين كادت ظلمة الليل أن تنجلي.» قالت شهرزاد: «أرقت يا مولاي؟! وما أرَّقك؟» قال الملك: «تسألين ما أرقني؟!» ثم سكت لحظة همَّ في أثنائها أن ينبئ شهرزاد ببعض الأمر، ولكنه ذكر شيئًا فرد نفسه إلى رشدها وقال مبتسمًا: «أرقني الشوق إلى قصصك العذب الجميل.»

وكان الواقع من شهريار أن نفسه لم تَسْلُ عن قصص شهرزاد منذ انتهى في الليلة الواحدة بعد الألف، وإنما كانت تتحرق شوقًا إليه إذا أقبل ميعاده المعهود من الليل،